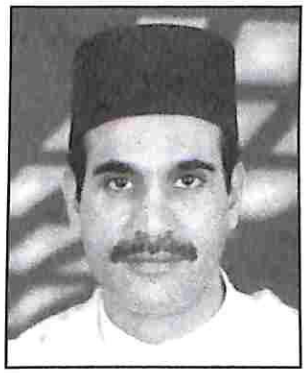

قراءة في المجموعة القصصية

إيقاعات في قلب الزمن

للأديبة أم سلمى

بقلم : سعيد ساجد الكرواني
المغرب

للأخت الأديبة أم سلمى قصص كثيرة، منها ما جمعته بين دفتي كتاب يحمل عنوان : «إيقاعات في قلب الزمن»(1) .

وإذا قلبت صفحة العنوان فإنك واجد مباشرة أن القاصة أهدت كتابها إلى كل الغرباء، وإلى كل الغازلين خيوط الحلم، وإلى «سارة» في تحديها الرائع . وإذا كانت كلمة الغرباء - أولاً - تستدعي حديث الرسول ﷺ : «بدأ هذا الدين غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ . فطوبى للغرباء، قيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال ﷺ : الغرباء هم الذين يصلحون ما أفسد الناس» وفي رواية: «يصلحون إذا فسد الناس»، والروايتان صحيحتان، ولا بد منهما، لماذا ؟! لأننا نراهن على الصالح المصلح، الهداة المهتدين، والأدباء المسلمين، أولئك هم الغرباء الذين لا يخالفون إلى ما يدعون وينهون .

وإذا كانت سارة - أخيرا - تتحدى ولتحديها روعته، وبالمناسبة فإن سارة في القصص تمتح من الواقع الشيء الكثير - فإن قلب ووسط ولب الإهداء، إلى كل الغازلين خيوط الحلم والأمل، فلا مجال للقنوط حتى في أعتى لحظات الظلام، إنما هي مواصفات الغربة من صلاح وإصلاح، وهي أحلام متفائلة مرجوة التحقق تعقد عليها الآمال، كما تحديات رائعة واستجابات لهذه التحديات إذا استفدنا من «توينبي» .

وفي الصفحة الرابعة تفتح فؤادك لتسمع بكليتك إلى كلام متخصص مسؤول للدكتور عماد الدين خليل الناقد المعروف، ورغم قلة سطوره، فإن دلالته شاملة ووافية، بكل ما في الكلمة من معان وظلال، ورغم أن كلامه كان حول النموذج «من يوميات التشرد» إلا أننا نبلغه من هاهنا أن ما قاله بصددها ينسحب على كل قصة على حدة، وسأسرد كلامه برمته لأبين ما ذهبت إليه : قال الدكتور عماد بالحرف : «لقد سعدت وأنا أقرأ نموذجا من مجموعتك القصصية " من يوميات التشرد " فأحسست بتجاوب معها : ربما بسبب لغتها الشاعرية الشفافة،

وربما بسبب حوارها المقنع، وربما بسبب أسلوبها الغني بصوره الفنية التي صيغت بعناية، وبتعابيره المؤثرة التي منحت القصة دما حارا ... » .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا للناقد الجليل: إننا شاركناك في سعادتك خلال قراءتنا للمجموعة القصصية كلها، كما تجاوبنا مع كل قصة بالخيط الرفيع الرابط بين تلابيبها جميعا، كما نستأذنه في إزاحة كلمة " ربما " لتجتمع في صعيد واحد، وفي كل القصص من البدء إلى المنتهى، اللغة الشاعرية الشفافة، والحوارات المقنعة، والصياغة الفنية، بأسلوب غني بصوره التي لا تخطئها العين، فضلا عن الدماء التي تفضلت بها على الإيقاعات التعبيرات المؤثرة، كما قال الأخ الحبيب والصديق الوفي د . عماد الدين خليل حفظه الله وسلمه .

نعم، كل ألوان الحوار غير متكلفة، تشعر بذلك حين تغرق فيما يسمونه بالحوار الداخلي أو المناجاة الذاتية، ولكن هذه الذاتية عند أم سلمى عصية على الانفصال عن الجماعة . إذ تقول في خلال مراسلة: «إن الكتابة عندي مسؤولية وأمانة، وليست ترفا فكريا أو وجدانيا، وبما أنها كذلك، فهي جزء من حركية الأمة والمجتمع، تعبر عنها، وتصدر عن مختلف آمالها وآلامها، هذا بالرغم من اعتباري أن أي كتابة تتمتع باستقلالية فردية، ولكن بما أن الذات الإسلامية غير منفصلة عن الأمة، فإنه - في نظري- لا يمكن الفصل بين المشاعر الذاتية والمشاعر الجماعية»، مما يدخلنا في قلب الأحداث لنعلن حضور المرأة في كل قصة، وهو الأمر الذي لا يعني أنها تتحرك بمعزل عن مكونات المجتمع، كلا، فإن القاصة تصورها في كل مستويات دُرَجه، غير أن مجرد هذا الطرح، ينبئ عن إرادة تغييرية قوية في طرح الأبدال والبدائل، وتقول أيضا : «والوظيفة الأساسية التي تتحكم في الكتابة هي التغيير، فبمحاولة طرح البديل لمختلف التراكمات الأدبية والأطروحات الكتابية، يكون الهدف هو إحلال الطبيعي محل الشاذ، والفطرة محل الوضع السائد الفاسد»، اقرأ «الإعلان» لتحس أنها قصة واقعية بطريقة أو بأخرى مركزة جدا جدا، مع أنها لا تتعدى ثلاث صفحات من القطع المتوسط، والحروف غليظة، والبون بين الأسطر شاسع، لتثور أعصابك، فترثي لحالة فاقة وعوز في مجتمع ثرواته وفيرة، إلا أن قسمتها ضيزى، فيضيع البطل المسكين مرتين: واحدة، حين يصدق الإعلان عن شراء عضو من أعضائه بأغلى ثمن، وأخرى ليقبض دراهم معدودة لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا تسعف حتى في تعويض ما أفسد الأطباء بالبتر كأنما يتواطؤون مع السفاحين عن سبق إصرار وترصد ونية مبيتة . إن البطل لم يجن إلا مرير الحصاد، وها هو مشلول مرمي على الفراش، ويا أروع ما عبرت به لتصوير المأساة بذيولها الباهظة في واقع لا يرحم : «كان رأسه يدور ويده قابضة على بضع مئات من الدراهم، لم يعد يدري شيئا، والذي يدريه أنه لم يعد يقدر على الخروج من بيته، وعيناه الحيتان تتابعان زوجته في دخولها وخروجها، لا يدري أين ومن أين، وانتهى حتى الخصام، ولم يبق له سوى النظر بصمت مشلول» . (ص٣٦) .

والملحوظ هو إغراق هذه القصة في المعاصرة حيث يتقدم عالمنا خطوات إلى الوراء - من أسف - لأنه عوض أن يسهم في حياة مطمئنة، ينيخ بكلكله، ويجثم بثقله على إنسان هذا العصر بمشكلات ومعضلات، لم تكن لتخطر على البال، تضطره إلى بيع نفسه جزئيا أو كليا، لكن دون ثمن! إنه حقا واقع لا يرحم ، أفلحت القاصة باقتدار في تصويره هاهنا.

وفي إيقاع آخر «.. ممل في حافة الزمن» كان يجد لذة في الكلام عن متاعبه وهي تصغي إليه، تود لو تفديه، تود لو تمحو عنه هذا التعب، لكن الواقع أقوى منهما، تلطخه رغبات محمومة لمترفين يعيشون من عرق المقهورين ولا ينصفونهم، قالت له : ألن يأتي ذلك الغد أبدا ؟ ظل السؤال يتمطط في أجواء البيت دون أن يجد له جوابا يلمه ...» ص ٤١، ٤٢) .

وقبل «الإعلان» بقصة، كنا على موعد مع «رحلة في عالم الضياع» ، تفصل بينهما، « من يوميات التشرد» إنها رحلة فتاة تطمح إلى تغيير وضعيتها، تلتقي برفيق ليس ككل الرفاق، ظنا منها أنها التقت بالمبادئ التي تخول لها التغيير الذي تنشده خاصة وأن وعود «الرفيق المناضل» كثرت وتصب في نهر «المصلحة العامة» - زعم - لتفاجئها الأحداث / اللقاءات المتكررة بخوائهم، وأنه لا مجال للنضال المكذوب، إنما هي اللذة واللذة

الحرام فقط، ليوفي الأمر على صراعات داخل هذه اللقاءات، خصوصا في لحظات اللقاء الأخير بالرفيق الزائف، الذي من خلاله تذكر أحداثا جلّى مرت بها : من صراع مع الجيران، فتستعرض شريط جارتها وطمأنينتها في تصرفاتها، وتتذكر كذلك نزيف أمها، ولا شك أن الصراع الذي كان «يحتدم في داخل البطلة، اقتضى أن يكون بناء القصة متشابكا، تتداخل فيه الأزمنة، وترتفع فيه بعض الأصوات الخارجة عن السرد، وأما الأمر المفرح حقا، فهو التأكيد على فتح بوابة الأمل في كل الأحوال، وإليك هذه الخاتمة حيث تنتصر الفتاة بقدرة القادر سبحانه : «... دارت الغرفة حولها، بطنها تتقلص.. الأمعاء تقفز نحو حلقها .. الحلق خرطوم يفرغ القيء على الكؤوس، وأيد عديدة تدق الباب بأصوات مختلفة .. كثر اللغط ... تداخلت الأصوات ...، صوت واحد قوي ارتفع من أعماق الزمان والمكان يدوي ويطغى على جميع الأصوات التي تخفت وتشحب الله أكبر الله أكبر ، ويغمر الصوت كل جسدها ، كل عقلها، الله أكبر » (ص٢١) إنها الدعوة التامة، وهنيئا بالعودة إلى رحاب الإيمان ..

لكن ثمة كلمة، يا حبذا لو كانت بدلا لها كلمة أخرى من النداوة والانسياب عوضا عن الطغيان وما جاوره، ثم ألا نستحضر قول الرسول ﷺ :«إنه - يقصد بلالاً رضي الله عنه - أندى صوتا منك» ؟! بلى .

وأنا لا أدري لم ضحكت ملء شدقي ضحكات معمورة إيلاما، لا

أستطيع وصفه بدقة، وأنا أقرأ هذا المقطع من «الإيقاع الممل»، ألأنني اقتربت من نفس الظروف، أم لمجرد التعاطف مع البطلة، أم لأن نظرات الأطفال وأصواتهم تجلد؟! لا أدري.. الأرضية تلمع ، لكن الحيطان تنظر إليها بشماتة، وهذا الكرسي الفاقد لإحدى قدميه، وكأنه خارج توا من الحرب، لماذا يحاول إخفاء تلك الابتسامة القذرة، تنهدت بعمق .. لا فائدة، هدأ البيت قليلا، قبع الأطفال أمام التلفاز الصغير، تعالى صوت الصغير يشق طبلة أذنها قائلا ببراءة خبيثة[٢] : «لو كانت "تلفزتنا" ملونة لرأينا هذا البرنامج أحسن، أليس كذلك يا أمي ؟ ...» (ص ٣٩) .

وما يلفت الانتباه كذلك في قصص أم سلمى أنها تحسن العزف على اليومي والواقعي بأسلوب جميل ومؤثر خاصة ما يوحي بصرامة الواقع الذي يعيشه أغلب الناس إلا أنهم لا يعبرون عنه : «... أشعل النور والتفت صوب طفليه، وهما فوق بعض، يتعاركان، " زعق فيهما "، - "بابا .. لم يتركني أنام، ما إن بدأت أحلم حتى رفسني " . - "والله العظيم يا بابا لم أفطن إليه، رجله دائما في أنفي ولا أشتكي " . - "دائما الصراع، ألا تتركونا ننام قليلا! هذه ليست حياة! "، " تمكنت العنكبوت من تطويق الدخيل، أخذ الصغير إلى فراشه، وضعه تحت قدميه، أصبحوا أربعة في فراش واحد ... " (ولو سأنتظر)!! (ص ٥٣، ٥٤) .

وتذكرني - حقيقة - قدرة الأستاذة سعاد الناصر (أم سلمى) على التعبير عما يبدو أن لغة الأرقام أولى به، بالشاعر والناقد العراقي المعروف حكمت صالح الذي يجعل الحجارة الصماء تنطق هي ووسائل التقنية الحديثة، تقول الأديبة : «أسندت رأسها إلى كتفها وغابت عن حمى أفكار قادرة لو انصهرت مع الفعل أن تقهر غابة الصمت، وتعيد الحسابات الممزقة إلى عنفوانها القديم " (على ضفاف الحلم) (ص ٢٢)، ثم إن القصص - ختاما - تحتاج إلى لغة الإحصاء المعجمي نرجو أن نرجع إليه إن شاء الله رب العالمين . ■

الهوامش

* سعاد الناصر، أديبة وشاعرة وناقدة، أستاذة جامعية بتطوان المغرب، لها أعمال متعددة خاصة في القصة القصيرة والدراسة النقدية، صدر لها : "فصول من موعد الجمر" و" لعبة اللانهاية» ...

(١) ط١، ١٩٩٤م، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، المغرب .

(٢) إسناد جميل فيه من التمنع، ولا عجب إذ يذكرنا بأديب العربية والإسلام مصطفى صادق الرافعي رحمه الله، فقد قال في " السحاب الأحمر " ط٧، ١٣٩٤هـ، دار الكتاب العربي ببيروت، لبنان، : «فمهما نافق الصغير فهو ذكي خبيث، ولكن نفاقه ينتهي بقبلة على خده أو لطمة ... » .